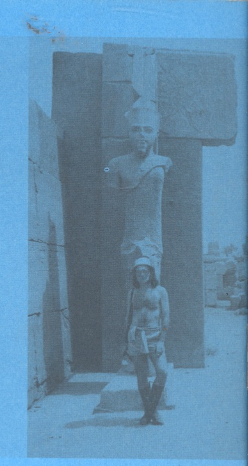
مكتبة الإسكندرية العظمى

الحلم الجديد لمدينة الإسكندرية

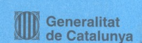


تيرينسي مويش

ندوة تكريم تيرينسي مويش

الإسكندرية 18 كانون الأول/ ديسمبر 2005
القاهرة 19 و20 كانون الأول/ ديسمبر 2005











GIFTS 2005

Fundación Pangea

Spain

مكتبة الإسكندرية العظمى

الحلم الجديد لمدينة الإسكندرية

تيرينسي مويش

مكتبة الإسكندرية العظمى

تيرينسي مويش

الحلم الجديد لمدينة الإسكندرية

قبل عدة أشهر احتل الخبر صدارة الجرائد في العالم. وفي تلك الأيام لم نكن قد شبعنا من الأخبار المروعة فكان هناك مجال لحب الإستطلاع و حتى، وأتجرأ القول بذلك، للتوقع. كنا نتحدث عن ذلك المشروع الذي نخطط لإعادة مكتبة الإسكندرية العظمى والذي يدعو إلى تبني تلك الروح الثقافية التي حول هذه الهيئة والمدينة التي كانت تحتضنها إلى مركز يشع روحانيتها الخاصة على كل الثقافات وكانت تجمعها في خلاصة واحدة.

في عصر تقدم فيه الثقافة، إن تم تقديمها، على أنها ظاهرة يحكمها التشتت، كان الخبر بمثابة أمل كنت أشكك فيه في مقالة نشرتها الصحافة اليومية آنذاك. وما كنت أنتقد المحاولة في القيام بمهمة ثقافية، فإنه أمر يستحق دائما المدح فيه، ولكن كنت أعبر عن تحفظاتي في مناسبة تبني رمز، وعلى الرغم من الهيبة المكتسبة عبر الزمان، كان يظهر على أنه قد مات منذ التذوب الحاصل بمرور الدهر. ومن هذه الزاوية قد تصبح المكتبة العظمى مجرد طاغوت ثقافي.

وهل من الممكن في أيامنا إسترجاع تلك الروح الهادية للمكتبة العظمى، ولرجالها، وحتى لمدينة الإسكندرية برمتها على أنها رمز ثقافي؟

فمن قبيل الصدفة زرت في صيف عام 1990 بقعا مختلفة يربط بينها موضوع سقوط الإمبراطوريات العظمى و، على نفس المنوال، إحلال الثقافات الكبرى محل سابقتها. ولربما من كبرياء الرحالة وكأنه بدأت تشخص أمام عيني فكرة عن ماضي ثقافاتنا الأمهات وعن ما بقي منها متراكما في بعثرة القرون وعن أكل لحوم البشر من قبل التاريخ.

فكانت ثلاثة أماكن معينة، فضلا على أنها كانت قد بحثت عنها، قد قدمت المثال الحي في عملية المقارنة التي قمت بها. أولا، الجزر اليونانية، التراث ما قبل العصر الإغريقي الكلاسيكي، و، في شبه جزيرة "بيلوبونيس"، ثقافة المدينة الإفريقية، "بوليس". وفيما بعد، القسنطينية، أي، التراث البيزنطي الذي قد التهمته إستنبول والتراث

العثماني الذي قد افترسه الفوضى المشوشة الحالية. وفي الأخير، روما تلك البلوعة الدائمة المستفزة للتاريخ التي قد كتبت عنها الكثير من الصفحات والتي قد وصفتها ذات مرة بأنها "خضاضة الزمان". وهي خضاضة يهزها هز شديد وعنيف يجعلها يأخذ بنا في فنتة تصرعنا، لأننا نشعر بأن الخليط الناتج هو منتهى حقيقة الدهر.

وفي هذه الطقوس للأسى وفي هذه المأدبة للعض المتبادل التي تكون التاريخ، كانت بعض التفاصيل تؤدي بي، لا محال، إلى الإسكندرية، وعلى وجه الدقة، إلى التجربة الإسكندرية. إن مشاهدة بعض التماثيل في متاحف الإمبراطوريات الثلاث، و آثار مباعدها والنصوص الكلاسيكية، إن كل ذلك كان بمثابة قطع متفرقة عن أحجية كانت تعيد بنيانها في وحدة معلنة ومريحة فإن هذه الوحدة تجمع كتلة من الشعوب المشتبكة وتثبت نفسها على أنها هوية ثقافية وعلى أنها تمثل أصولي.

فحينما عثرت، في متحف إستنبول للآثار القديمة، على ناووس يسمى "ناووس الإسكندر"، قد اتضحت صحة الأصول بهذه التسمية التي، يا للمفارقة، هي خدعة.

وسبق لي أن قد كنت أسلم الأمر على أن ناووس الإله الجندي كان من الزجاج وليس من المرمر، وعلى أنه لم يعثر عليه قط، و، إن لم يكن من يحلمون من الكاذبين، على أنه في قبر قد ضاع أيضا: وهو "سوما الإسكندرية" (أي جسد الإسكندرية بالإقريقية). ومن جراء ذلك ما أصبت بالخيبة عندما قرأت أن الناووس العظيم الذي كان يرسم الإسكندر في ميدان المعركة كان، في واقع الأمر، تابعا لأمير شاب من مدينة صيدة أراد المصاهرة بشهرة الإسكندر بغية التحصل بأعلى رعاية يرغب فيها أيما حاكم أو محارب في أي زمن كان. وكان كذلك أفضل دعاية يختارها إنسان متمدن. وفي هذا الإلتباس بين الأميرين – أمير صيدة وأمير الأساطير- قد وجدت برهانا على الحضارة التي كانت تجمع بين أثمن التحف المرئية في المدن المذكورة. وكانت تلك الحضارة تنطلق من قواسم مشتركة تجسدت في تجربة لغوية مشتركة تقمصت قميص ال"كويني"، اللغة الإغريقية الكونية. وكانت في الوقت نفسه الحضارة التي اتخذت أرق الملامح في التجربة الجمالية المسماة "الهيلينية"، والتي لم تكن سوى مواصلة طبيعية للثقافة الهيلينية، أي الإغريقية في تسميتها الحقيقية. ففي الزيارات المشار إليها إلى المتاحف الكبرى كنت أتلقى تأثير تلك الحركة التي ستقدم الحضارة

الرومانية، فيما بعد قرون مضت الفنانون في عهد النهضة الأوروبية، على إمتصاصها والإستفادة منها. فمن التميثالات الخزفية الشبه المختبئة في متحف الإسكندرية, و مرورا ب نواويس إستنبول، إلى ميكائيل أنجيلو في عمله بكنيسة "القديس بوطرس في فينكولي"، الكل يتحدث عن الهيلينية بكونها الخيط الرابط لتفكير يخلد أنبل التجارب في حوض المتوسط في صعيد الآداب الإنسانية.

وليس من قبيل الصدفة أن التسمية المفضلة للهيلينية هي، اليوم، الإسكندرية (النزعة الإسكندرية). وهو صحيح أنه كان للمدينة منافسون أقوياء مثل برغامو و، في أخفض نبرة، ممالك أنطاكيا و ساموس و رودس وممالك أخرى. ولكن الإسكندرية احتفظت بعصا الملك سواء كان لأنها سعت في الإعلان عن كونها الوارثة الروحية لأثينا أوبسبب السمعة المفرغة عليها من إسم مؤسسها، ذلك الجندي الماكيدوني المنبهر بالعرف التقليدي الإغريقي والذي كان ينام برأسه على أبيات هوميروس كوسادة. ولِم نستغرب من رغبة مؤسس الإسكندرية في تحوله إلى بطل هوميروسي قبل كل شيء؟ ففي كتاب "سيرة الإسكندر" يحكي لنا بلوتاركوس يشرح لنا مدى هذا الولاء: "قد عبر الهيليسبونت ورسى في إليون حيث ذبح الأضاحي لأثينيا وأراق الخمر تكريما للأبطال، ومسح عمود إكيليس التذكاري مسحا بالزيت تكريما له وهرول حوله عاريا مع أصحابه، كما جرت العادة، وتوجه مناديا أنه طوبى لأكيليس لأنه كان له صديق حميم في حياته (بتروكلوس) وشاعر كبير من بعد موته (هوميروس)".

إن كل تلك الأعراف الثقافية وخلفها في الملكيات النابعة من بعد وفاة الإسكندر وتفتت إمبراطوريته، فإنه لا غنى عنها لإدراك مغزى الإسكندرية في أقصى مداه.

وإني كنت أكتشف شيئا من أهم ملامحه الأساسية، وهو المواطنة العالمية، على أنه وصلة الإتصال بين التجارب الجمالية التي كنت أمر بها في معاينتي اليونان وإستنبول وروما. ولكن مدى هذه المواطنة العالمية كان يتجاوز إلى ما هو أبعد وكان من إمكاني إكتشافه في أجوائي الخاصة وشبه اليومية.

وبالفعل كانت هناك براهين عن تلك المواطنة العالمية الإسكندرية في وطني بعينه.

ففي أثار "أنبورياس" بالقرب من مسكني، لقد وجدت نفسي أحيانا امام معبد مكرس لسيرابيس، الإله الذي يعتبره أي باحث مستقيم

في الثقافة الكلاسكية إلها نغلا. فكما هو الشأن بالإسكندرية هو إله لا يربطه علاقة بمصر بالرغم من أنه مصري. ومن الملحوظ أن الألهة الفرعونية القديمة تم تعديلها منذ هلنكة مصر العتيقة بإدماجها إلى ألهة المستوطينين الإغريق بعد تهلين مصر. ولن نتحدث عما حدث من بعد الغزو الروماني. ومن العجيب أنه في الإسكندرية، في سراديب الموتى بكوم الشقافة، نجد إليهين من الألهة المعبودة في مصر القديمة: هوروس و أنوبيس تم تمثيلهما في صورة إنسان مهلنة وعلاوة على ذلك ولابسا كلاهما وعلى التوالي "زي الكليميد" الإغريقية درعا رومانيا. وفي ذروة التشوه يغادر هوروس صورته الرائعة في صخر ويتحول إلى رضيع يمص إبهامه بإستمرار، جالسا على حضن الأم الكبيرة "إزيس" التي تتخذ صفات جديدة أكثر ملائمة بإنتشارها في حوض المتوسط. وفي هذا البحريسمى هذا التصوير لهوروس "هاربوقراط".

وإذا كان عاشق مصر القديمة قد سمح نفسه بإبرام إتفاقية مع التشوهات الواقعة في الاساطير البالية بفضل التوفيقية فإنه من الصعب للغاية تفرسه أوجه المشابهة بدين الإجداد في ذلك الإله "سيرابيس" الذي سلف ذكره.فإن هذا الإله، الذي كان معبودا في "أمبورياس"، كان بدعة إسكندرية محضة أو، إن نلتزم الدقة، معاهدة بين ملوك الأسرة البطلمية الإغريقيي الدم والألهة القديمة في النيل.

لقد ولد سيرابيس من التوفيقية بين أزيريس، أهيب الألهة الأصلية، والثور أبيس بمدينة منفيس، التي كانت كهنتها لم يزالوا ملتزمين بالدين القديم. وقد إضيفت شخصية زيوس الأولمبي، التي قد استوردها المستعمرون، إلى هتين الصفتين الوطنيتين. وفضلا عن ذلك قد تم تبديل رمز قفة من السوحر، شبيهة بقفف الصعيد التي تستخدم لخزن الحبوب، بالتجهيز الأصلي لأزيريس. وبهذا المسخ قد تحول سيرابيس إلى إله مصري ناجح لا محال في بلاد كانت الحبوب أهم مصادرها للرفاهية. وهي بلاد سيتم في المستقبل وبغير الصدفة لقبها بأنها "مخزن غلال روما":

وقد تم القيام بدراسة مستفيضة عن أسباب فوز عبادة سيرابيس خارج مصر ومن جرائها في إمكاننا الإعتقاد بأنها غير كامنة فقط في ميل الشعوب الغربية إلى أي طابع الأجنبي او إلى الطابع الغريب الماثل في العبادات المصرية القديمة ففي محاضرة ملقاة مزودة بمعلومات قدمت في الندوات الدولية لجمعية الدراسات الهيلينية السويسرية أبرز

الأستاذ روبرت دونار الوظيفة الدعائية القابعة في إنتشار عبادة الالهة المصرية في المتوسط. فمن بداية حكم ملوك الأسرة البطلمية الأوائل، أي من أول إزدهار مدينة الإسكندرية، اكتسب سيرابس صفة حفيظ البحارة والتجار في أهم موانئ حوض المتوسط وكانت معابد سيرابيس قد تعددت فيه ففي القرن الثالث قبل الميلاد كانت هيئة دينية على هذا الغرار في جزيرة ديلوس، مسقط رأس أبولوس وقد كانت الجزيرة على هذا الأساس الأخير مركزا للعبادة عند الشعوب الهيلينية وإذا كان هناك وجود للإله الإسكندري كان ولا بد إنتصارا عظيما له في ميدان المقدس وكان من الإمكان تصور مدى الإستياء عند أبولوس بإمتداد ظل الإله الحديث العهد في المكان فضلا عن كونه إلها مستوردا.

ويسهل تقديم أقوال مثيلة ولربما أكبر في شأن شعبية عبادة إزيس وهي أحب ألهة قصة خلق الكون في الأساطير المصرية. فإنه تم إستيعابها في العالم الإغريقي لابسة صفات "الأم الكبيرة" بالإضافة إلى توليها، في أيام الأمبراطورية الروماني، وظيفة العاهرة المشبوه فيها وإلى ربطها عند الجميع باعمال السحر ربطا متينا. ومن ذلك كله تمخضت جملة من أعقد مسرحيات الأسرار المقدسة التي لا تكن بصلة إلى وظيفها الأولية في مصر الفراعنة، فضلا عن أنها ارتدت على منوال سيرابيس صفة هداية البحارة في تجليها كإزيس المضيئة إستنادا إلى وجود أحد تماثيلها على قمة منارة الإسكندرية الشهيرة.

فما هي الطريق الطويلة التي سارت عليها هذه الآلهة حتى وصولها إلى أجهل الموانئ في المتوسط؟ لقد أبرز الأستاذ دونار أمرين أساسيا. أولهما أنه تم وجود تلك المعابد على أنها مؤسسات للمتوطينين الإسكندريين الذين كانول يخلدون في الأراضي الجديدة عبادتهم المعتادة والطبيعية. وثانيهما أنه تم ظهور إستعمال الدين في خدمة الدولة كرسول سلطة ملوك الأسرة البطلمية وكوسيلة إستعمارية لهم. فهل كان ذلك أحد المظاهر للزهف الثقافي الخفي؟ ورغم أننا لسنا في ميدان الحديث عن الإنتشار العسكري للإسكندرية يجدر ذكر إستخدام العبادات المصرية في ما سماه الأستاذ منارد بسخرية "الدعاية الإزيسية". ولم تكن المرة الأولى ولا الأخيرة في إستخدام إله من الألهة لأغراض دعائية. ولكن فيما نحن بصدده، تواجد معبد لسيرابيس أو لإزيس في ناحية من النواحي الأسبانية كان يثبتني في يقين تلك الهوية الثقافية التي كنت باحثا عنها في رحلاتي.

وكنت قد وجدت في شكوكي وتعجبي بإزدهار تلك العبادة ب"أمبورياس" ثبوتا ولو صغيرا للعنصر الرابط بين النزعات الروحية المتوسطية كلها في وقت اوسع رواج للغة الإغريقية الموحدة (كويني) وفي الهيلينية والنزعة الإسكندرية. وكان هذا العنصر الرابط الكوني هو سبب وقوع كل واحد في شباكها وإن كان من المعارضين لها كما هو الشأن بالنسبة إلى روما نفسها. فقد قال المتهكمون إن الرومان الأكثر تحفظا وصرامة، الذي كانوا يسخرون من المتعاطفين مع اليونان على أنهم منحرفون وساقطون، ولكنهم ما كانوا يمتنعون من إرسال أولادهم إلى الجامعات اليونانية أو إسناد تربيتهم إلى أحد اليونانيين على مراتب إمكانياتهم الإجتماعية. وبالرغم من الحقد عليها ورفضها كانت الإسكندرية تثير الإندهاش كما ما زالت مصر محترمة ولو بعد أسرها فإنها كانت تمثل إلى حد بعيد مهد الحضارة .

والآن نذكر رحلات شخصيات عظيمة من الإغريق زارت مصر منذ القدم مثل سولون و بطاغوراس و هيرودوت. وقد ذكر أفلاطون في كتابه "تيمنيو" أن سولون سمع عالما مصريا أشاد بماضي مدينة أثينا على أنه أقدم و أعظم من ماضي مصر. ورغم ذلك اعترف هيرودوت بالتفوق الفكري المصري على اليوناني فإنه كان منبهرا من نضوج الحضارة في بلاد النيل حينما قال "إننا اليونانيين تعلمنا كل الأمور من المصريين". وكنت أفكر في هذا التصريح المتواضع عندما كنت أشاهد تماثيل عصر القديم في متحف أثينا فإن تلك التماثيل التي تجسد غلمانا وفتيات وقت العبادة باحثين بأنظارهم عن الإله لم تبلغ بعد درجة الإتقان في العصر الكلاسيكي لأنها تستلهم صفاتها من نموذج أقرب إليها، ألا وهو الفن المصري الذي يصور الأشخاص في آن من أواني العبادة بغية تخليدهم: فتقدم ساقا وتبقي ساقا راسخة. وحينئذ كنت أتأكد من أثر الماضي المصري في فن اليونان الأول كما كنت أتذكر الأمر العكسي: أنه إعتبارا من تلهين مصر، كانت النقوش الطوليموسية تتعكس فيها العضلات القوية في الصور المرسومة وهذا دليل على دخول واقعية التمثيل فيها التي كانت صفة مميزة للفن اليوناني وصفة دخيلة على الفن المصري. فإن الأول تطور عبر الزمان ليصل إلى غرضه في وضع الإنسان مقياسا لكل الأشياء.

ومع إدخال التشكيلية اليونانية في الفن المصري لقد أتينا إلى قلب الإمتزاجية التي هي الصفة الشاملة للتجربة الإسكندرية. إن الفن المصري بقي الفيتين بلا تغير وقد سمي هذا الطور الأخير له ب"فن

الغروب" وفي بعض الأحيان لقي هذا الفن رفضا شديدا على أساس صفاته الملتبسة ولكن سبب هذا الإلتباس كان كامنا في الشخصية الطوليموسية التي جاءت كأنها عطر قاتل لختم تاريخ مصر القديمة بالتنكر لجميع اسسها الجوهرية.

إن كل هذه العملية التي تم فيها الغزو الفكري على مصر لا معنى لها دون الإشارة إلى العنصر اللغوي. ولا يتعلق الأمر فقط بال"كويني" على طبيعتها كلغة تواصل دولية بل باليونانية التي انضمت إلى بلاد باتت منغلقة على نفسها طيلة قرون. وفي الندوة المذكورة آنفا للدراسات الهيلينية قد قدم الأستاذ ولي بيريمانس محاضرة تحدث فيها عن الإزدواجية اللغوية في حكم أسرة البطلمية، و رسم من خلالها إطار العلاقات اللغوية في مصر منذ إستيلاء الإسكندر العظيم مرورا بمن تبعه من ورثته. وكان قد وزع الفرق المجاهرة إلى فئتين: الفئة الأولى تحتوي على الشعوب الناطقة باليونانية مهما كان مكان استقرارها، في القارات أو في الجزر. وكان بيريمانس يضيف أنهم "منذ وصولهم تحت إمرة الإسكندر أحكموا سلطانهم بالصرامة على البلاد وقد نصبوا اللغة اليونانية لغة رسمية في الحياة العامة وفي إعادة التنظيم للمجتمع المصري ساروا على منوال المجتمع الإغريقي وهكذا قاموا بإصلاح قطاعات مهمة في الدولة إستنادا إلى المبادئ اليونانية التي كانت تذكرهم بحضارة وثقافة تبعث عليهم بالإفتخار بهما وكانوا التقوا بالمصريين الذين كانوا تحت أكليروس قوي ونخبة من السادة ملاك الأراضي لها يد طولى عسكرية ومدنية على سواء.

وكان هؤلاء المصريون يعيشون معيشتهم الخاصة على مبادئ موروثة من ماض بعيد ومتألق وقد تعودوا على موجات الإحتلال الأجنبي المختلفة وكانت للبلاد خصائص عديدة كانت تصبغ بصبغة فريدة كبلاد غنية ومنقبضة على نفسها. ورغم ما بذل اليونانيون والمصريون من جهود للحفاظ على خصوصيتهم كلا على حدة لقد تم التداخل والتشابك بين الشعبين ولو باليسير. فيتضح أثر الديانة المصرية على الإغريق في ميلهم إليها مستغربين لها كل من غير اكتراث بتعلم لغة الأهالي". فلم تهتم الأسرة البطلمية اليوناني الأصل بلغة مصر القديمة إلا في آخر ملكهم. وقد حصل هذا بكيلوباطرا السابعة التي كانت تجيد عدة لغات.

وكان شغل الأسرة البطلمية الشاغل بسط سلطانهم على جميع أنحاء المتوسط قبل أن يكون إعادة المدح إلى طيباس، لكنهم ما أهملوا

مداهنة الشعور الوطني للمصريين بإفراغ الصياغة التقليدية المصرية على المعابد العظمى المبنية على طول صعيد النيل كما رأينا.ولكن في نفس الوقت اكترث بعض ملوك الأسرة البطلمية بماضي البلاد الذي كان يمتد عبر الفيتين قبل وصولهم ولربما كان الأمر متعلقا بالسمعة وحتى بضغضغة مشاعر الشعب حينما أمر بطلموس أفيرجيتيس الكاهن مايثو للقيام بسرد جميع الفراعنة إنطلاقا من الأسر الأولى في الإبمراطورية القديمة إلى وصول الإسكندر. وبسبب الظروف المحيطة بالأمر كان من نتائجه تهلين أسماء الرفاعنة. وقد أثار ذلك إلتباسا شديدا تكرر في كتب التأريخ على توالي العصور. وهكذا نرى الشاعر العظيم بيرسي ب. شيلي مساهما في هذا الإلتباس عندما ذكر الرأس العملاق للفرعون رمسيس الثاني الموجود في معبده في مدينة طيبة بإسمه المهلن "أوزمانداياس" المعروف عند المسافرون الإغريق.

وعلى كل حال فإن لائحة مانثو بقيت بجانب معبد أبيدوس المصدر الوحيد لتاريخ أسر فراعنة مصر. ومن ناحية أخرى تكون هذه التزاوجات في تلهين الأسماء المصرية القديمة إحدى أهم الصفات لكتابة التاريخ في أيام أوجه مدينة الإسكندرية وتعير له الطابع العالمي الأصيل الذي قد أشرنا إليه.

ومن الأمور الأساسية لفهم وظائف المكتبة ومدى نفوذها هو الشكل الذي قامت عليه فإنه بدءا ذي بدء كانت هناك مكتبتان: المكتبة الكبرى المعورفة بإسم "الأم" التي وصلت مخون الكتب عندها إلى نصف مليون مخطوط وكان مقرها في المتحف أو بيت ربات الفنون.و المكتبة الصغرى المعروفة بإسم "البنت" ومقرها في معبد سيرابيس. ومن باب المفارقة أن أصغرهما قد جمعت فيها عددا أكبر من الكتب وحلت محل الكبرى من ناحية التمثيل الرسمي.

إن أهمية المكتبة العظمى الفريدة كانت ناتجة عن وجودها ضمن مركز جوهري للحكمة الإسكندرية وهو المتحف أو، بتسميته الإغريقية، "موسيون" أي بيت ربات الفنون. وقد تم بنيانه على غرار متحف أثينا وكان من ضمن أهدافه إستقدام العلماء ورجال الفكر من جميع البلدان مع كون الأسبقية لليونانيين نظرا إلى نية الملوك في مواصلة الثقافة الإغريقية كما كان مشروعا عند الإسكندر لو لم يلقى مصيره الملحمي.

وهكذا تحولت المكتبة إلى مصنع حقيقي للحكمة والبحث والتقصي في العلم وحتى الجدل وفعلا كان المتحف أي بيت ربات الفنون يؤوي جميع التجارب الثقافية والعلمية الواردة في العالم القديم.

وقد انتصبت الرياضيات بجانب الشعر وانتصب علم الفلك بجانب المسرح و قامت علوم الفيزياء بجانب أدب الملحمة ولربما كان المتوقع إيواء الحداثة المعاصرة نفسها.

فإن انشغلنا بسرد ما حققته الثقافة الإسكندرية من فوز في الميادين المختفلة لما وسعنا الوقت ولا المقام فلنكتف بذكر ابيات تيوقريطس وكليماكوس وفلسفة مذهب الأفلاطونيين الجدد التي أثرت تأثيرا بالغا في النهضة الأوروبية، وملحمات أبولونيوس الرودسي ورياضات فلوطينوس. ويبقى فوق كل الإعتبارات جمع ابيات هوميروس وتنظيمها فهو العمل الكبير الذي قام به أحد مديري المكتبة ألا وهو زينودوت.

وقد قام زينودوت بعمل شاق لأنه وضع جميع ابيات هوميروس في كتب منظمة من بعد انتقائها مما هو دخيل عليها وبغية لبس الصياغة الأدبية على أشعار تم تنقلها بطريقة شفوية إلى ذلك الحين ولكن ما هو أهم من هذا العمل الجبار الخاص هو أنه قد تم تطبيق هذه الروح التنظيمية على الثقافة اليونانية برمتها. وبفضل جهود زينودوت تحول القارئ إلى باحث. فإن كانت هناك تهم بالتفاهة موجهة إلى الثقافة الإسكندرية فالجدير بالذكر أن الثقافة التلقائية لقيت وقتئذ حينها لتوعيته. ومن جراء ذلك صار منصب مدير المكتبة بمثابة منصب الكاهن الأكبر للثقافة. وقد دارت بين بعض من شغل ذلك المنصب مناظرات شرسة من أجل فرض رؤيتهم الخاصة في موضوع ما. وانتهى الأمر إلى حالة شبيهة بالدكتاتورية الثقافية. وعلى سبيل المثال نذكر إنفاء أنولونيوس الرودسي بأمر من كليماكوس بسبب إدانة ابيات الحكمية للأول من طرف الثاني. ولكن من بعد وفاة كليماكوس شغل أبولونيوس الرودسي منصبه كمدير للمكتبة وأخذ بثأره عندما أمر بإلقاء مؤلفات كليماكوس في قاعة النسيان.

وإن مغزى كل ذلك أن مكتبة الإسكندرية العظمى شهدت أول الإشتباكات الثقافية التي ما زالت تحدث في عالم الأدباء حيث النقد والجدل يلتحمان إلى درجة المشاجرة بين باعة الخضروات.

وندرك بعد الثقافة الإسكندرية في الإمتزاج الواقع في المدينة نفسها فإنها مدينة، كما هو معروف، قد حلم بها قبل تأسيسها فالأسطورة

تقول بأن هوميروس قدم على الإسكندر في منامه وروى له أبات ملحمة الأوديسة التي كانت تشير إلى موقع ممتاز على شاطئ مصر. وإذا دخلت مدينة ما التاريخ على هذا النماط فإنها قادرة على اجتذاب الشعراء بديمومة ولو في أوقات الفتن.
ولقد كتب فورستير قطعة جميلة على شكل تأبين توجز النظرة الشعرية عن الشتاؤم الإسكندري بالقضاء: "وعلى الرغم من التباين بين الرجل الذي أسس الإسكندرية والمرأة التي فقدها (كيلوباطرا) فبينهما قاسم مشترك ألاوهو عظمة المباني والآثار ويبقى بينهما دولة الأسرة البطلمية على أنها أمر غريب وهاش".

ما ذكره فورستر مثال على الخطابة الجميلة العالية، لأن الاسكندرية طبعاً لن تموت بموت كليوباترا، بل بالعكس، لقد دامت أهميتها خلال الأمبراطورية الرومانية وكانت واحدة من المراكز الأكثر مأساوية لترسيخ المسيحية، وبعد ذلك أيضاً عندما قررت تلك الديانة الانتقام من الكفر بتهديم مراكزه الحيوية. كذلك عندما وجدت نفسها مقحمة أيضاً في موجة من الترهات في شكل هرطقات كبيرة.

الأسلوب الخطابي لفورتر يشير إلى إتجاه واحد نسيناه في الكثير من المرات، ألا وهي سلالة الطولوميين، السلالة النغلة التي كانت تقبل بأي شئ عدا العصبية. فالأسكندرية لم تكن أبداً منبذة لناسها، بل أنها على العكس كانت تأوي الجميع وترعى أهم التجارب التي نسميها اليوم ذات الإهتمام الدولي. ففي سنة 200 قبل الميلاد – تقريباً- قام طولوميو الثاني فيلادلفيوم بحبس سبعين راهباً يهودياً في سبعين كوخاً وكلفهم مهمة ترجمة الكتب المقدسة إلى اللغة الإغريقية. وعندما خروجوا – حسب ما روته الأسطورة- كانت لديهم سبعون ترجمة متطابقة، ومن هنا يأتي الاسم الشهير للتوراة السبعينية أو توراة السبعون.

من الواضح إذاً، بعيداً عما روته الأسطورة، فإن أشهر ترجمة تمت على مدى عدة سنوات (انتهت حوالي سنة 130 ق.م.) ولكم ما يهم حقيقة هو الفراغ الذي ملأته. فبعد عملية أولية لهجرة اليهود، ظهر جيل جديد ناطق بالإغريقية ولفهمها تمت ترجمت التوراة السبعينية إليها. التخطيط الاسكندراني اهتم أيضاً بالأديان التي ربما بقيت بعيدة عن روح المدينة. وبالفعل، أخذت الجالية اليهودية بالاسكندرية تنمو لتتحول

إلى أهم مجموعة بعد المصريين الأصليين. ثم أن استيعابها للاغريقية أدى إلى ظهور مدرسة فلسفية وكان فيلوم أهم المتحدثين باسمها.

ومن كونية الثقافة الاسكندرانية نستشف فكرة رائعة حول كمية المؤمنين الجدد الذين خلقوا مسافات عدة بين الشعوب من حيث اللغة والثقافة والعرق وحتى الديانة، وكانت قد شملت عائلة برغام المالكة والتليديين والملك النوميدي جوبا الثاني في موريتانيا والعنتيبيين بالقدس. وتحديداً فإن إحدى الصفات التي تميز هيرودوت العظيم كشخصية غير مرغوب فيها هي أرثوذوكسيته (استقامة عقيدته)، لا لإنه تخصص في قتل الإبرياء بقدر ميوله المعلنة نحو الهيلينية (اليونانية).

وفي الأراضي المصرية، كانت توجد ارثوذوكسية مشددة أخرى، وهي الطبقة الأكليروسية (طبقة رجال الدين) في ممفيس، التي لم تتخاذل أمام إغراءات الهيلينية. صحيح أن مقبرة سقارة الواقعة أمام قبور الثيران ابيس، التي تسمى اليوم سيرابيوم، أقام عليها الإغريقيون مدرج نصف دائري خصص لفلاسفتهم، ولكن أعراض اعلان حسن الجوار كان نتيجة موقف معارض يمثل الارثوذوكسية المتصلبة.

وتفسر الاسطورة أنه عندما وصل جثمان الأسكندر الإلهي إلى ممفيس، أعلن الحبر الأعظم في باث رفضه القاطع للسماح بدفنه في العاصمة القديمة وتم إرساله إلى المدينة التي أسسها قرب البحر. تفسير هذا الرفض يشبه كثيراً الفأل السيء الذي يؤثر مباشرة في مستقبل حظ الأسكندرية. حسب تلك النبوءة كان جثمان الأسكندر يحمل معه الشؤم والدمار إلى أية مدينة تأويه. صحيح أنه بذلك أنتهت الأسكندرية ولكن لن يكون الحظ السعيد حليف ممفيس التي أرادت حماية نفسها بكل أشكال الأمن. فالمدينتان هما اليوم دلالتان بارزتان على العدم المطلق. على الأقل بقيت للاسكندرية هالة من الحتمية الرومانسية. ولا نعلم ما حدث لجثامين عظمائها سوى أنها اختفت إن لم تكن قد تعرضت إلى عملية تهريب مثيرة. فقد رأينا أن جثمان الأسكندر رحل من بابل البعيدة إلى أن وصل إلى الضريح الذهبي في سوما، في المكان الذي يوجد به اليوم مسجد عبد الداني الذي لا يمكن المساس به لأسباب دينية تحول دون أي محاولة تنقيب أثارية.

كذلك، في العصور الوسطى سرق بعض التجار جثمان القديس مرقس، الذي أدخل المسيحية في الأسكندرية، وتم إرساله إلى البندقية. في تلك المرحلة، وقعت عملية تهريب جثامين أخرى كان مخرجها ميناء الأسكندرية: غبار المومياء الذي كان يستخدم لعلاج آلام الأثرياء إبان النهضة الأوروبية، بما في ذلك بعض الأمراء المشهورين، كالأمير الفرنسي فرانسيسك الأول. بذا يبدو من المحتمل جداً أن أحشاء اخناتون وحتسبشوت انتهت داخل "كروش" بعض الأوروبيين الذين لا يقلون شأناً ممن يعانون من داء النقطة.

وقد بدا تهريب الجثامين ذلك بمثابة استعارة مجازية وضعت قصداً لتنويرنا بشأن المصير الحتمي التي آلت إليه الأسكندرية.

في القرن السابع، بعد الهجرة المحمدية، قام القائد عمرو بن العاص بفتح مصر أمام الإسلام، وقد تمكن من مكاتبة قائده عمر بسلسلة الروائع الأسكندرانية قائلاً: " لقد فتحت مدينة الغرب الكبيرة، ليس من السهل وصف جميع ثرواتها. يكفي أن أقول أن بها 4000 قصر و4000 من الحمامات العامة و400 مسرح و12000 متجر و40000 يهودي ممن يدفعون الدية. هذه المدينة تخضع الآن للاسلام ورجالي يودون المكوث بها".

خلال إثنا عشر قرناً كانت سلطة الأسكندرية، المدينة الكلاسيكية، قد تم استبدالها بالسلطة الكاسحة للقاهرة، المدينة الاسلامية. وقد استبدل الصمت بالصخب المتزايد الذي لا زال حتى اليوم يلف روح أي مسافر حساس. الأنجليزي لاورنس دوريل، الذي أبقى على روح الأسكندرية حية في رباعيته الروائية المشهورة المسماة " الأكثر خلابة بين المدن". وهو وصف مطابق تماماً لأن عظمة الأسكندرية التي لا زالت دائمة تحولت إلى هاجس مسلط يملأ فراغ الحاضر. وما على المسافر إلا الشعور بذلك.

ومع ذلك، عرفت الأسكندرية فرصة ثانية في التاريخ عندما وضع الحاكم محمد على في منتصف القرن الماضي، قراراً بتحديث مصر، حيث فتح الأبواب على التجارة ونظام السمسرة الأوروبي، حينها

استعادت المدينة طابعها الكوني وهو طابع بلغ ذروته خلال فترة ما بين الحربين. وللمرة الثانية، خلال مرحلة الـ " بيل إيبوك" تلك، كانت الأسكندرية تشبه أوروبا اكثر من تشابهها بالقاهرة.

إن تعدد اللغات، واختلاف معانيها، والغموض العرقي والتاريخي كانت قائمة حتى في فترة دوريل الذي افتتح رباعيته بتفسيره الشهير لروح المدينة بالقول: " ما هي بالتحديد هوية مدينتنا هذه؟، ماذا تعني بالضبط كلمة الأسكندرية؟ عيون العقل تسير إلى ألف طريق يلفه الغبار. البعوض مالكها وكذا الشحاذون ومن يملكون حياة وسطاً. خمسة أعراق ودستة من الأديان وخمسة أساطيل... لكن هناك أكثر من خمسة أجناس وأسماء واليونانية هي القادرة على التمييز بينها".

اللغة اليونانية أفادت الأسكندرانيين كثيراً لتحديد طائفة عريضة من الأجناس أكثر من تلك التي حدها دوريل نفسه. ومن بين المؤسسات الثقافية الكبيرة الأخرى، استخدمت اليونانية كلغة رسمية للسراب الذي ظهر في تاريخنا المعاصر. ولكونها كانت تطمح لأن تكون عدة أشياء في ذات الوقت، بقيت الأسكندرية وكأنها لا شيء. حتمية كنت أفكر بها عنما تأهبت لكتابة رثاء لمدينتي التي فقدتها ولم استعدها أبداً.

لقد مضى صيف 1990 بين أبحر ومدن كلاسيكية بصحبة هذه الملاحظات لمسافر وقد كنت أحس كأديب وإنسان بحماية هذا الماضي المتجانس في ظهري. ورغم أنني لم أبلغ سن الأهرام حسبما قدره بونابارت كنت امتلك القدم الكافي لأقول بأنني ما جئت من العدم ولن أعود إليه بفضل أمان ذلك التراث ولكن ما وضعت في الحسبان أن التاريخ هو أحيانا أمر طارئ وليس أمرا محتسبا وهو مفاجأة ليس تخطيطا. فلما كنت أتمتع بشغوفي الثقافية مسافرا عبر مياه بحرأجيو نشبت حرب الخليج الأولى وقد أعادني عنفها إلى الواقع وهو واقع سبق لي ظهوره من قبل في رحلات قمت بها في أراضي النيل. فإنه امام حملي الكلاسيكي الجديد وأمام هذه الوحدة للعصور القديمة برزت شعبية الأصولية الإسلامية في بلدان كانت تنتمي إلى دائرتنا الثقافية وما دامت تتجذر في مصيرها التاريخ على ما جاء في كتبه.

إن قرار الإسلام في إستعادة هويته مهما كان الثمن جعلني قدام أمر لا غبار عليه وهو أن النماذج الكلاسيكية تعيش في تلك البلدان

مختنقة تحت ثقافة معارضة لها وفي بعض الأحايين مستبدة برأيها ومائلة إلى إقصاء الغير.

ولقد جاء خبر إعادة إيجاد المكتبة العظمى التي كانت مركز الهيلينية ضمن نشوة شعرية في ظروف تدعو إلى التأمل في عدم مناسبتها. فإن المشروع جاء بعد فقدان المدينة شخصيتها المتميزة كما ردده الكثير مرارا ولا أتحدث عن الماضي البائد بل عن الحاضر القريب.

فما بقي من الإسكندرية من هويتها؟ ها نحن في عالم ينبذ الماضي وحتى الحاضر وراء ظهره. فقد تلاشت الكورنيش مع مبانيها الجامعة لأشكال متنوعة العائدة إلى حقبة ما بين الحربين العالميتين ولا أحد يتذكر من كان هؤلاء الرجال العظام الذي أقاموا المدينة. ولا أحد يعرف كفافيس وقد تقلصت الجالية اليهودية التي كانت مساهمتها جوهرية منذ قرون من 300.000 إلى عدة عائلات، وحتى في ميدان السياحة غير ممكن العثور على صاحب تاكسي يوصلك إلى عمود بومبي الذي هو في الحقيقة بقايا معبد سيرابيس.

فالعالم الإسلامي هو الوحيد الذي لا يزال واقفا متكبرا متسعيدا لصحته ساحقا لا يبالي وربما لا يدري بانه كان هناك قبل قرون عديدة مقدوني حلم حلما طابعه عالمي على شاطئ مصر.

وفي هذه الظروف فكر الثقافة الغربية باسترجاع إحدى اساطير الماضي الكلاسيكي الأكثر عزة بغية النظر إلى نفسها في مراءة الإرتضاء الذاتي. ولكن كيف يمكن أن تنعكس هذه الأمنية على أرض الواقع؟ ما هي الروح المتجاوبة مع هذه المحاولة في البحث عن أوصولها في أراض قد ابتعدت منا على مر القرون؟

وربما كلما نحن فيه بهذا الصدد ليس إلا تمسكا بأصنام ثقافية فإن مجتمعنا قد طرد النزعة الإنسانية من طواياها بأسالب الإستهلاك المفرط وقد انهزم تحف الماضي أمام تظاهرات شبه ثقافة الجماهير الغربية الشائنة المتردية وقد استبدل الطابع الروحي الوارد في البطاقات البريدية والشطحات الظافرة في القنوات التلفازية بشعور الرسام وذوق الشاعر. ويقع التنافس بين أبيات لورد بيرون و شعارات دعاية وكالات السفر في وصف الجزر اليونانية. فلا تشد الرحال إلا إلى متاحف أو آثار ظهرت من قبل في التلفاز أو في الجرائد. وأصبحت تلك المواقع الأثرية مجدر ديكور لإعلانات تجارية يظهر فيها أجمل الأشخاص

لإغرائنا بشراء منتوجات تافهة مثل حامل النهدين أو عطر ما أو حتى اللبن.

ففي هذه الحالة، لا تجلب الإسكندرية سوى القليل من الزوار ولا غرو إذا كان المسافر ذا إحساس يناضل من أجل تجسيد حلم مستحيل. وقد يحصل على ذلك بقلب حلم الإسكندر. فإذا كان الإسكندر قد حلم بمدينة قبل وجودها فإن المسافر الحالم يبني في مخيلته وعلى أرض روحانية مدينة لن تقدر على نهوضها من جديد.

فلا يمكث في الميدان إلا روحها مما يوحي لمن ينظر إلى إعادة عظمة الماضي على أنه يتوقع منه إنشاء نسخة حزينة لديزني وورد.

فمرحبا بالمكتبة أية مكتبة مهما كانت بشرط أن تكون مكتبة ولا تسعى إلى تكرير ما لا يسمح بالتكرار فإن حدث تكراره ما نتج منه إلا محاكاة مضحكة للأصل. فهناك جهد عظيم للقيام به في تنظيم ثقافة عصرنا. ولكن مفهوم الثقافة عندنا هو بعيد عن مفهوم القدماء لها فلم نصل إلى هذه الحالة بفضل النضوج ولكن بسبب التشبع وليس الوضع وضع الثبات بل وضع الأزمة الذي تبحث فيه الحضارة الغربية عن نفسها في يأس.

لقد اكتشفت الأن أنني لا أزال أتحدث عن الثقافة الغربية في الوقت الذي يفوتني إدراك الإسكندرية الراهنة وقد ذهب خطابي إلى أي صار منكتا وشموها للروح الإسكندرية الحقيقية. فالروح الحالية للمدينة هي روح ضيقة قروية، تزدري ما تجهله وتجهل ما لم تستول عليه.

وهكذا يرفع المؤذن صوته من المسجد الذي يحل محل الضريح المزعوم للإسكندر. ذلك الصوت الذي يفوق ويغلب جميع تلك النقاط للضعف الكامنة في الماضي. قد سكت الحديث عن إزيس أو سيرابيس وحتى عن الإله المسيحي، الذي سبب أتباعه في عدد كثير متساو من الشهداء والضحايا بعد ما فرضوا عقائدهم على الناس. وكانت نتيجة هذا الفرض العقائدي ظهور أكبر تيارات هرطقية ففي نهاية المطاف غلبت المسيحية المونوفيزية على سائر العقائد النصرانية الأخرى. وهو الأمر الذي وضع مصر بيد الكنيسة القبطية التي كان مصيرها اللاحق التعايش مع دين الفاتحين العرب.

ولم يكن هذا التعايش سهلا وبالخصوص من بعد أيام عبد الناصر. وأنا هنا أعي أنني تحدثت إلى حد الآن عن أعمال عنف وعن الدمار وعن الأسى ولكنها ليست مجرد مفاهيم رقيقة بل كانت الظروف التي أحاطت بالمصير الأخير لمكتبة الإسكندرية العظمى.

ولم يكن هذا المصير مختلفا عما حصل لمكتبات أخرى في العصر القديم. ولنتذكر هنا ما حدث بروما في بداية إمبراطوريتها وكيف سخر الفيلسوف سينيكا من هؤلاء الأثرياء الذين كانوا يختزون بالعديد من الكتب بتباهيا وليس من أجل قرائتها. كما سخر سينيكا كذلك من جمع البطلمة كل ما جمعوه من تحف وكتب جاه لصولجانهم وليس حبا في العلم وإستفادة منه.

وسواء أ كان هذه التهم حقيقية أو وهمية فإنه ما كانت مكتبات أثرياء روما ولا تحف البطلمة والأطالوسيين في بيرغامو بقادرة على مقاومة الإحتجاج العنيف المصاحب للديانات الجديدة التي كانت من شأنها تغيير وجه الدنيا.

عانت مكتبة الاسكندرية الكبرى في القدم ويلات الحريق التي أذاقتها اياها جيوش القيصر جوليوس وكذلك الأسطول البحري المصري القابع في المرسى المجاور للقصر الملكي وبالتالي مباني المتحف الصغير.

أشهر الكتاب القدامى اختلفوا حول حجم الخسائر الناجمة في تلك الأيام التعيسة. جاء في نصوص بلوطاركوس، و تيتو ليفيوس، و كيودروس ، وأوريس كوقا، ما يزيد عن 400.000 ويبدو أن هذا العدد هو الأقرب للحقيقة.

بعد مرور سنوات، تحت حكم كيلوباترا السابعة، وعشيقها وحليفها في روما، القائد ماركو أنطونيو، كان يهديها كتبا تعادل الكتب التي حرقت كمّا والتي كان يستحوذ عليها من المكتبة المنافسة ببرغامو.

عندما صارت مصر محافظة رومانية، أصبحت المكتبة تحتل الصدارة في العالم أو على الأقل عرفت أوج رونقها.

إلا أنها عرفت خطرا أثناء الايام العصيبة والتي شهدت، بأمر من الإمبراطور كاراكايا، مصرع رعاياه الاسكندريين.

كانت أول مصيبة حلت بمكتبة الاسكندرية، كمثيلاتها في الامبراطورية، على يد الامبراطور طيودوسي من بيزنطة الذي أصدر الأوامر بإغلاق وهدم المعابد الوثنية، تلك الأوامر قوبلت بالعصيان من طرف "الرهبان السود" تحت إمرة قائدهم المتشدد اتانيس. بعد ذلك، جاءت نهاية الثقافة الاسكندرية على يد الأسقف طيوفيل الذي قاد حملة مكثفة على مباني السيرابيوم وبالخصوص الجناح الخاص بالمكتبة.

توجب علينا بعد ذلك إنتظار القرن السابع مع الفتوحات العربية لشهود آخر مأساة، تحضرني الآن رسالة عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر التي يتحدث فيها عن عجائب الاسكندرية نذكر منها الكم الهائل من الكتب التي كانت تملأ القاعات البائسة والتي كانت فيما مضى تعتبر مركزا للمعرفة.

ذلك الأمير عمرو يؤثر عنه في الثقافة العربية حساسيته البالغة وتفهمه لديانات وتقاليد شعوب الفتوحات. في الجزء الأول من سلسلة كتب "دروس آباء الكنيسة الشرقية" يحكى عن بعض لقاءاته مع زعماء الجماعات الدينية لهته الشعوب. فبالنسبة للاسكندرية، نذكر المجادلات المطولة مع البابا جوان فيلوفو حول الخلافات العميقة عن طبيعة المسيح التي فرقت الكنيسة المصرية.

من تلك اللقاءات نخص بالذكر الجهود المبدولة من طرف جوان فيلوفو لاقناع الأمير العربي أن يحفظ الاسفار المتبقية في المكتبة العتيقة من لهب النيران. فضلا على ذلك الكم الهائل للنصوص المسيحية المتراكمة عبر قرون التطاحن الديني. انبهر الأمير بالمعارف المذهلة والتي لم تكن في الحسبان، مما جعلته يسعى جاهدا إلى حفظ هذه الأجزاء من لهب النار. ممتثلا بذلك إلى مبادئ الاسلام والذي كدين يعتمد على تعاليم الكتاب الذي يحث على احترام الكتب الدينية الأخرى.

للأسف الشديد، لم يستطع الأمير المرهف الحس اتخاذ القرار بدون استشارة الخليفة عمر المعروف بصرامته، والذي قيل عنه أنه ذهب إلى مجادلة محمد بأن جاء بجزء ثان من القرآن وأنه كتاب معصوم من الخطأ.

عندما وصلت رسالة عمر الاسكندرية تحدد مصير مكتبتها نهائيا. قال الخليفة في هذه الرسالة اذا وافقت هذه الكتب كلام الله نتركها أما اذاما خالفت كلام الله فلا حاجة لنا بها فعليكم بإتلافها. وبالرغم من رغبات البابا "فيلوفو" وتمنيات عمرو فان أوامر الخليفة أطيعت بحذافيرها.

وحسب المؤرخ الكفتي فان كتب الاسكندرية استعملت كوقود لمدافئ حمامات المدينة "اسم هذه الحمامات معروف لكني نسيته" يقول المؤرخ. لكن الكل يتذكر أن هذه الكتب كانت حطبا لمدافئ الحمامات لستة أشهر متتالية.

من هذه الخسارة الفادحة لم يُبقى الا على نصوص" أرستو" الذي أثر بشكل بالغ في تكوين الفكر الفلسفي الاسلامي.

رغبت في الختام ان اذكر بأن روح الاسكندرية قد ولد وولد معه عدو للحرية، ولقد مات خنقا في مواقف عديدة من عدم التسامح عندما كان كل احد يعير اهتماما للون أو الدين أو اللغة. وليس بسبب واهٍ للتأمل اذا ذهبنا بمخيلتنا الى جدورنا المفقودة فاننا لا نعمل الا على التعدي على الثقافات التي تكونت هنالك زمنا طويلا بعد ذلك مما جعل صاحب المكتبة زينودوت يقرر ترتيب ابيات هوميروس.

ما شأن قائمة الآلهة الاغريقيين في تقرير مصير "ترياذا" في الاسكندرية الحاضرة المسلمة؟

في حين ذلك اذا ما أردنا أن نرسم اطارا ثقافيا للمجتمع الغربي، في نهاية هذا القرن، والذي بدأت تنقرض فيه الثقافة التقليدية من المقررات الدراسية، في هذا النمط المهيمن الذي يطغى عليه طابع الهمبورجر والكوكا كولا، وكأنها كفرناحوم يعج بألوان متلفزة والتي يذكر فيها من حين لآخر اسم رجالات مهمة في القدم في برامج مسابقات من أجل ربح سيارة أو غسالة، من يتذكر انه في يوم من الأيام عرف شاطئ مصر مدينة ذو ثقافة سبب الوجود فيها وسبب العيش سيان؟

من يضمن لنا اليوم أن الاسكندر لم يكن ثملا حتى بدأ في الحلم؟
شكرا جزيلا.

محاضرة القاها تيرينسي مويش في مقر أثينيو برشيلونة يوم 26 شباط/فبراير 1992.

تيرينسي مويش – سيرته

ولد الأديب تيرينسي مويش في مدينة برشيلونة الخامس من كانون الثاني/ يناير عام 1942 وتوفي في الثاني من نيسان/أبريل عام 2003. وقد اصتبغت أعماله الأدبية بصبغة موضوعين كان يعشقهما ايما عشق وهما السينماء وتاريخ مصر القديمة. وكانت بعض مؤلفاته قد نالت جوائز أدبية مختلفة مثل جائزة "بلانيطا" (الكوكب) لروايته "لا تقل إنه كان حلما" (1986)، وجائزة "يوسيف بلا" لروايته "أمواج على صخرى خلوة" (1969)، وجائزة "رامون يلول" لروايته "جنس الملائكة" (1992).

فكرة تصميم مجموعة الكتب و تنفيذه: إيوموغرافيك

صورة الغلاف: جميـع الحقـوق محفوظـة لكوليتا

الطبعة الأولى: ديسمبر 2005

معهد رامون يلول
شارع ديبوتاسيو ، 279
برشيلونة E-08007
موقع المعهد في الشبكة www.llull.com
عنوان البريد الألكتروني irl@llull.com

طريقة الطباعة: كوبيسيت

كتيب مجاني

Terenci Moix, escriptor, neix a Barcelona el 5 de gener de 1942 i mor el 2 d'abril de 2003. La seva producció literària va estar sempre impregnada dels dos temes que més l'apassionaven, el cinema i la seva admiració per l'antic Egipte. La seva obra va ser guardonada amb nombrosos premis, entre els quals destaquen el Premi Planeta per *No digas que fue un sueño* (1986), el Josep Pla per *Onades sobre una roca deserta* (1969) i el Premi Ramon Llull per *El sexe dels àngels* (1992)

Disseny de la col·lecció i maquetació Eumogràfic
Fotografia de la coberta © Colita

Primera edició desembre del 2005

Institut Ramon Llull
Diputació, 279
E-08007 Barcelona
www.llull.com
irl@llull.com

Impressió: Copyset

Edició no venal

les calderes dels banys de la ciutat. «El nombre d'aquests banys és ben conegut, però jo els he oblidat –diu el cronista–. Però tot el món recorda que els llibres de la biblioteca serviren per mantenir enceses les calderes durant sis mesos seguits».

D'aquell gran desastre sols es varen salvar els textos d'Aristòtil, que tanta influència tingueren en la formació del pensament filosòfic de l'Islam.

Voldria acabar recordant que l'esperit d'Alexandria nasqué i es desenvolupà enmig de la llibertat i morí aixafat en diverses ocasions pel martell de la intolerància, qualsevol que fos el signe, color, religió o idioma. I no seria un mal motiu de meditació preguntar-nos si en somiar per Alexandria, les nostres arrels perdudes, no fem sinó agredir les cultures que allí s'han anat desenvolupant molt temps després que el bibliotecari Zenòdot decidís ordenar els versos d'Homer. ¿Què pinta a l'actual Alexandria islamitzada la llarga llista de divinitats hel·lèniques que van decidir els destins de Troia?

I en darrera instància, cenyint-nos al nostre marc cultural, en aquesta societat occidental on la cultura clàssica va desapareixent dels plans de estudi, en aquest model arquetípic de l'hamburguesa i la coca-cola, vertader cafarnaüm de coloraines televisives on els gran homes del passat només apareixen de tant en tant en els concursos per guanyar un cotxe o una rentadora, en aquest fi de segle, ¿qui recorda ja que un dia, en el litoral d'Egipte, existí una ciutat on la cultura significà al mateix temps raó d'existir i raó d'estat?

¿Qui ens pot garantir, avui, que Alexandre no estava torrat en posar-se a somiar?

Moltes gràcies.

Conferència pronunciada per Terenci Moix
a l'Ateneu Barcelonès el 26 de febrer de 1992.

ja l'informe que el conqueridor Amrú ben Al-as envià al califa Omar i el seu astorament davant les meravelles contingudes a Alexandria, entre elles la gran quantitat de llibres que encara es conservaven a les desolades sales del que fou el gran centre del saber.

Aquest emir Amrú se'ns presenta a la tradició àrab com a individu de gran sensibilitat, comprensiu amb la religió i la cultura dels pobles conquerits. En el primer volum de la sèrie *Patrologia Orientalia* es recullen algunes de les seves trobades amb els caps de les comunitats religioses d'aquells pobles. En el cas d'Alexandria, són importants especialment les entrevistes amb el patriarca Joan Filofó, amb qui mantingué llargs col·loquis sobre les pintoresques controvèrsies de la naturalesa de Crist que havien dividit l'església egípcia.

D'aquelles vetllades, destaquen els esforços de Joan Filofó per aconseguir que l'emir àrab preservés del foc els volums que encara quedaven de l'antiga biblioteca, a més de la gran quantitat de textos cristians que s'havien anat acumulant al llarg de tants segles de lluites religioses. Impressionat per aquell cabdal de saviesa, l'existència de la qual ni tan sols havia previst, l'emir Amrú optà per salvar-los de les flames, seguint així les màximes de l'islamisme, que en tant que religió basada en les ensenyances del llibre, decreta el respecte pels llibres de les altres religions.

Lamentablement, el sensible emir Amrú no podia prendre una decisió sense consultar abans amb el califa Omar, notòriament reputat de fanàtic. D'ell es deia que arribà a dissuadir el mateix Mahoma de dictar una segona part de l'Alcorà, al·legant que aquest llibre contenia ja totes les perfeccions.

Quan arribà a Alexandria la carta d'Omar, la sort de la Gran Biblioteca quedà decidida per sempre. Deia el califa: «Si el contingut d'aquests llibres està d'acord amb Al·là, podem prescindir-ne. Si contenen quelcom contrari a la paraula d'Al·là, no tenim necessitat de conservar-los. Destruïu-los immediatament».

Malgrat els precs del patriarca Filofó i els desigs del mateix Amrú, les ordres del califa foren acomplertes dràsticament. Segons que explica el cronista Ibn Al-Kifti, els llibres de la Gran Biblioteca d'Alexandria foren utilitzats com a combustible per

dant el que va passar amb les que es varen formar a Roma durant els primers anys de l'Imperi. La mania dels nous rics de col·leccionar llibres per presumir i no pas per llegir-los provocarà una dura sàtira de Sèneca, el qual, dit sigui de pas, tampoc estalvià crítiques als antics monarques Ptolemeus, als qui acusava d'haver reunit les seves sorprenents col·leccions com a símbol de poder i no per obtenir-ne un profit cultural. Qualsevulla que fos la veritat d'aquestes acusacions, el cert és que ni les biblioteques privades dels rics romans ni les col·leccions dels Ptolemeus d'Alexandria o els Atàlides de Pèrgam resistiren la fúria vindicativa de les noves religions destinades a canviar la cara del món.

La Gran Biblioteca d'Alexandria patí amb anterioritat les conseqüències del foc provocat per un atac de les forces de Juli Cèsar als vaixells de la flota egípcia amarrada al port veí al palau reial i, per tant, a les instal·lacions del Museion. Sobre els volums que es perderen en aquelles tristes jornades, els autors clàssics no acaben de posar-se d'acord. Els textos de Plutarc, Tit Livi, Dió Cassi i Orosi Lucà parlen algunes vegades de 400.000. Sembla que aquesta seria la xifra més aproximada.

Uns anys després, sota el regnat de Cleopatra VII, el seu amant i aliat romà, el general Marc Antoni, li feia donació d'una quantitat aproximada de llibres, robats a la biblioteca rival de Pèrgam. Convertit Egipte en província romana, la Gran Biblioteca d'Alexandria continuaria exercint la seva primacia universal o, almenys, el suprem miratge del seu prestigi. Ni tan sols va perillar durant les luctuoses jornades que veieren les matances decretades per l'emperador Caracalla contra els seus súbdits alexandrins.

La Gran Biblioteca d'Alexandria, com totes les de l'Imperi, rebria el seu primer cop de gràcia quan l'emperador Teodosi, des de Bizanci, declarà la clausura i destrucció de tots els temples pagans. Aquestes lleis foren acatades amb veritable acarnissament pels anomenats Monjos Negres, dirigits pel fanàtic patriarca Atanasi. I, encara després, el bisbe Teòfil donà un cop definitiu a la cultura alexandrina en dirigir un assalt massiu contra les instal·lacions del serapèum i la part de la biblioteca que contenien.

Hem d'esperar al segle VII, amb la conquesta àrab, per assistir a l'últim acte d'aquest formidable drama. He esmentat

tat sobre un terreny espiritual que mai ja no podrà existir. Només queda l'esperit del lloc, recurs desesperat pels qui creiem que una inapropiada resurrecció dels morts podria convertir la grandesa del passat en una trista rèplica de Disneyworld.

Benvinguda sigui una biblioteca, qualsevol biblioteca, mentre sigui una biblioteca, mentre no intenti repetir el que és irrepetible, imitar l'inimitable, convertint-lo en vulgar paròdia de l'esperit que el va guiar. Cal fer molt per sistematitzar la cultura del nostre segle, però al mateix temps aquest concepte és molt lluny de presentar equivalències amb el passat.

No neix d'una situació de maduresa sinó de saturació. Tampoc no és un estat de realització sinó de crisi. En comptes de recuperar ansiosament, és buscar-se a ella mateixa amb desesperació.

Però veig que continuo parlant de cultura occidental i una vegada més l'Alexandria actual se m'escapa i el meu discurs es converteix en *alexandrinade*, és a dir, simple retòrica del vertader esperit alexandrí. Aquest esperit és avui el propi d'una ciutat de províncies que menysprea el que ignora i ignora el que no ha arribat a conquerir.

I amb la mesquita assentada sobre el que suposem va ser el sepulcre d'Alexandre, el muetzí enlaira el seu cant imposant-se sobre totes les debilitats del passat.

No es parla d'Isis o Serapis, ni tan sols del déu cristià, els seguidors del qual deixaren tants màrtirs com a víctimes de la seva fúria destructora després, en imposar les seves doctrines. Una imposició que no es va efectuar sense tràgiques imposicions personificades en les grans heretgies i en el triomf final del culte monofisita, que posà els destins d'Egipte en mans de l'església copta, destinada a conviure, en endavant, amb la religió dels conqueridors àrabs.

Aquesta convivència no ha estat fàcil, especialment en les darreres cinc dècades, des del triomf de la revolució nasserista. Però, en anotar aquesta circumstància, m'adono que vaig referint-me a la violència, a la destrucció i a la desolació des de fa estona. No són conceptes gratuïts. Al contrari, acompanyen el que va ser el destí final de la Gran Biblioteca d'Alexandria.

Aquest destí no va ser diferent del d'altres grans biblioteques de la antiguitat, i per comprovar-ho n'hi ha prou tot recor-

eclèctics del període d'entreguerres. Ningú no recorda quins eren els grans homes que feren gran la ciutat. Ja ningú no sap qui era Kavafis. La colònia jueva, tan decisiva durant segles, ha passat d'uns 300.000 membres a unes poques famílies. En el terreny merament turístic, és inútil esperar que un taxista ens porti on es troba la columna de Pompeu, mal anomenada així, ja que en realitat es tracta de l'última resta del que era el gran temple de Serapis.

Només el món islàmic segueix dempeus, altiu, recuperat, anorreador. I continua avançant sense recordar o saber tan sols que fa molts segles un macedònic anomenat Alexandre va tenir un somni de cosmopolitisme centrat en el litoral d'Egipte.

En aquesta situació la cultura occidental, de tornada de tot, cansada de tot, decideix recollir un dels mites més prestigiosos de la cultura clàssica per mirar-se en un mirall complaent.

Però, ¿com hauria de ser el seu reflex?, ¿a quin esperit respondria aquest desesperat intent de buscar els nostres orígens en terres que se'n van distanciar ja fa segles?

Potser intentem desenganyar-nos aferrant-nos a vells fetitxes culturals. Tot i a la fi, fa ja temps que la nostra societat desterra l'humanisme dels seus hàbits consumistes. Les gran obres del passat clàssic han perdut la batalla davant les manifestacions més denigrants de la subcultura de masses. Enfront dels monuments o de les obres d'art d'ahir, el gust del poeta, la sensibilitat del pintor han deixat lloc a la mística de la targeta postal o les bajanades de les televisions. A un poema de Byron exaltant la bellesa de les illes gregues, oposem els eslògans de les agències turístiques. L'índex de freqüentació de monuments i museus està en relació amb les vegades que aquests han aparegut a la televisió o en els suplements en color dels diaris. Les ruïnes, antany sagrades, serveixen de decorat perquè alguna model alemanya interpreti un anunci de sostenidors o perquè qualsevol xicotot bronzejat canti les excel·lències d'algun *after-shave* prometedor (o per anunciar iogurt).

En aquesta situació, l'Alexandria actual atrau molt pocs visitants. És lògic que el viatger sensible intenti d'anar més enllà de les ruïnes, centrant-les en un somni impossible. S'acull al somni d'Alexandre posant-lo de l'inrevés. Si Alexandre va somniar una ciutat on no existia, el somiador d'avui edifica la ciu-

propagar-se com a llengua oficial del miratge que es reproduí en la nostra història contemporània. Per la seva pruïja de ser tantes coses alhora, Alexandria es quedà en no res. I en aquesta fatalitat pensava jo quan vaig escriure un lament a la meva ciutat somiada i mai obtinguda.

Amb aquestes constatacions de viatger anava passant el meu estiu de 1990 entre mars i ciutats clàssiques. Com a escriptor i com a home em sentia reconfortat i especialment protegit en sentir a la meva esquena un passat tan homogeni. I, si no disposava de tants segles com els que Bonaparte atribuí a les Piràmides, sí que comptava amb els suficients per afirmar que no arribava del no-res i que, protegit per aquell llegat, mai no hi aniria a parar. No havia calculat que, de vegades, la història és emergència i no càlcul, sorpresa i no previsió. Així, mentre jo navegava la meva complaença cultural per les aigües de l'Egea, els esdeveniments al golf Pèrsic esclataren com una evidència que em va fer tornar a la realitat. Més enllà de qualsevol avaluació d'índole política, el formidable aldarull em va fer girar els ulls cap una realitat que ja s'havia presentat en el meus viatges anteriors a les terres del Nil. Enfront del meu somni neoclàssic, enfront d'aquesta idea d'una unitat indestructible des dels temps més antics, s'oposava la creixent popularització de l'integrisme islàmic a països que, segons els llibres, van pertànyer a la nostra àrea cultural o entronquen amb el nostre esdevenir històric.

La decisió islàmica de retrobar la seva identitat al preu que fos em restituïa una evidència fonamental: els nostres models clàssics existeixen en aquells països ofegats per una cultura antagònica i, en molts casos, exclusivista i excloent.

La notícia de la recuperació de la Gran Biblioteca, centre de l'hel·lenisme, convida a l'exaltació poètica sense evitar una meditació sobre la gratuïtat. iIronies de la història! Apareix el projecte quan s'ha dit infinitat de vegades que Alexandria ja no és ni l'ombra del que fou. Per il·lustrar la meva pretensió negativa no em refereixo solament a aquell pròsper període de l'antiguitat clàssica. Tornem al present absolut.

Què conserva Alexandria d'ella mateixa? Vet aquí un món que viu d'esquena al passat, fins i tot a l'immediat. Han desaparegut de la Corniche de la Mediterrània els esplèndids edificis

Al segle VII, pocs anys després de la Hègira mahometana, el gran general Amrú ben Al-as conquistava Egipte per a l'Islam. Encara pogué escriure al seu cabdill Omar aquesta successió de meravelles alexandrines:

«He conquistat la gran ciutat d'Occident. No és fàcil enumerar totes les seves riqueses. És suficient dir que té 4.000 palaus, 4.000 banys públics, 400 teatres, 12.000 llocs comercials i 40.000 jueus que paguen tribut. Aquesta ciutat pertany ara a l'Islam i els meus homes estan ansiosos d'instal·lar-s'hi».

Durant dotze segles el poder d'Alexandria, ciutat clàssica, fou substituït per l'apogeu de El Caire, ciutat islàmica. El silenci que substituí l'enrenou esgarrifa encara avui l'ànima de qualsevol viatger sensible. L'anglès Lawrence Durrell, que immortalitzà l'esperit d'Alexandria en un cèlebre quartet novel·lístic, la denominà «la més obsessiva de les ciutats». És una definició ben exacta, perquè a Alexandria la grandesa passada es converteix en obsessió que pesa sobre la buidor del present. I el viatger ha de limitar-se a pressentir-la.

I això no obstant, Alexandria conegué una segona oportunitat en la història quan, a mitjan segle passat, el governant Mehmet Alí decidí modernitzar Egipte, obrint les portes al comerç i l'intervencionisme europeu. La ciutat, recuperava la seva condició cosmopolita, condició que assoliria el seu punt culminant en el període d'entreguerres. I una vegada més, durant aquella mena de Belle Époque, Alexandria es va assemblar molt a Europa i gens a Egipte.

La multiplicitat de llengües, el que té heterodoxa la seva expressió, l'ambigüitat ètnica i històrica encara existien en època de Durrell, quan obria el *Quartet* amb la seva famosa definició de l'esperit de la ciutat: «¿Què és essencialment aquesta ciutat nostra? ¿Què resumeix la paraula Alexandria? Els ulls de la ment em mostren mil carrers torturats per la pols. Les mosques són els seus propietaris, així com els captaires i els qui viuen una existència intermèdia. Cinc races, una dotzena de religions, cinc flotes... però hi ha més de cinc sexes i només el grec demòtic és capaç de distingir-los...»

La llengua grega serví als alexandrins per molt més que per definir un catàleg tan abusiu de sexes com el que proposa Durrell. Entre d'altres gegantines empreses culturals, serví per

Jerusalem. Precisament una de les característiques que convertien Herodes el Gran en personatge no grat per l'ortodòxia no era que es dediqués a matar innocents sinó la seva declarada vocació hel·lenitzant.

En terres egípcies, una altra ortodòxia summament estricta, la del clergat de Memfis, tampoc no va sucumbir a les temptacions de l'hel·lenisme. És cert que a la necròpolis de Saqqara, davant les tombes dels braus Apis, avui anomenada Serapèum, els grecs van edificar un hemicicle dedicat als seus filòsofs, però tan simptomàtica com aquesta declaració de bon veïnatge pot resultar oposada, representant de l'ortodòxia més estricta. Explica la llegenda que quan el cadàver diví d'Alexandre arribà a Memfis, el gran sacerdot de Ptah es va negar rotundament donar-li sepultura a l'antiga metròpoli i el va enviar a la ciutat que havia fundat arran del mar. L'explicació del rebuig s'assembla molt a un mal auguri que afecta estretament la futura sort d'Alexandria. Segons aquesta profecia, el cadàver d'Alexandre portaria la desgràcia i la destrucció a la ciutat que l'acollís. És cert que així acabà Alexandria, però no li va tocar més bona sort a Memfis, que volgué protegir-se amb tanta seguretat. Les dues ciutats són avui una patètica manifestació del no-res absolut. Almenys restà sobre Alexandria una aurèola de fatalitat romàntica. No sabem gaire res dels seus cadàvers il·lustres, excepte que desapareixeren quan no foren sotmesos a un tràfic pintoresc. Ja hem vist que el cos d'Alexandre viatjà des de la llunyana Babilònia fins a raure al daurat sepulcre del Soma, en el terreny on avui es troba la mesquita Ab-Daniel, intocable per raons religioses que impedeixen qualsevol intent d'exploració arqueològica. També a l'Edat Mitjana, uns mercaders robaren el cadàver de Sant Marc, introductor del cristianisme a Alexandria i se l'emportaren a Venècia. A la mateixa època, un altre tràfic macabre tenia la seva sortida al port d'Alexandria: la pols de la mòmia que servia per guarir les dolences dels rics del Renaixement europeu i, fins i tot, les d'algun príncep famós, com Francesc I de França. Amb tot això, sembla molt probable que les despulles il·lustres d'Akhenaton o Hatsepsut anessin a parar a la panxa d'alguns europeus no menys il·lustres, atacats de gota.

Aquell tràfic de cadàvers sembla una metàfora feta a propòsit per il·lustrar-nos sobre el destí fatal d'Alexandria.

que la va perdre (Cleopatra) tenen un element en comú: una grandesa monumental. I entre ells es troba suspesa com una rara i fràgil cadena la dinastia dels Ptolemeus».

L'evocació de Forster és un exemple d'alta i bellíssima retòrica, per descomptat, perquè Alexandria no va morir amb Cleopatra. Al contrari, la seva importància es mantingué durant l'Imperi Romà i fou un dels centres més dramàtics de l'afirmació del cristianisme i, encara després, quan aquesta religió decidí venjar-se del paganisme en destruir els seus centres vitals, i encara més endavant, quan es trobà ella mateixa embolicada també en l'onada d'absurds que foren les grans heretgies. La retòrica de Forster apunta a una direcció que sovint oblidem: la dinastia dels Ptolemeus, dinastia bastarda, que podia tolerar qualsevol cosa menys el fanatisme. Alexandria mai no va ser excloent, tot al contrari. Acollia i fins i tot patrocinava importants experiències que avui denominaríem d'interès internacional. L'any 200 abans de Jesucrist –sempre són dates aproximades–, Ptolemeu II Filadelf va tancar a setanta rabins jueus en un nombre similar de cabanyes amb la missió de traduir a la llengua grega les seves sagrades escriptures. Quan sortiren, segons la llegenda, havien aconseguit setanta traduccions idèntiques, i d'aquí ve el famós nom de la *Biblia Septuaginta* (Bíblia dels Setanta).

Està clar que, més enllà de la llegenda, la famosa traducció es va fer al llarg de molts anys (fou acabada vers el 130), però el realment important és el buit que omplí. Després d'un primer procés d'immigració de jueus, sorgí una nova generació de parla grega, per la comprensió de la qual va ser traduïda la *Septuaginta*. La previsió alexandrina tenia cura fins i tot de les religions que podien quedar més allunyades del seu esperit. I, de fet, la comunitat jueva d'Alexandria va anar creixent fins a convertir-se en el grup més important després dels egipcis autòctons. Assimilada al grec, va donar lloc a una escola filosòfica, el portaveu de més renom de la qual fou Filó.

Del cosmopolitisme de la cultura alexandrina ens en dóna una idea formidable la quantitat de conversos que originaria entre pobles molts distanciats entre ells en llengua, cultura, ètnia i fins i tot religió. Assolí la família regnant de Pèrgam, els Atàlides, el rei númida Juba II de Mauritània i els Antipes de

plexa obra d'Homer, com ja he dit; eliminà versos dubtosos i proposà noves lectures, per donar una dimensió literària definitiva al que havia estat un poema de transmissió oral. Però el més important és que aquesta activitat es traslladà a tota la cultura grega codificada, corregida i, finalment, catalogada per primera vegada. És a dir, la més prestigiosa literatura del passat tornava a prendre consciència d'ella mateixa a Alexandria. I el treball de Zenòdot tingué la virtut de convertir el lector en investigador. Malgrat totes les acusacions de frivolitat formulades contra la cultura alexandrina, és important destacar que en la Gran Biblioteca la cultura espontània es va veure per fi racionalitzada. El càrrec de bibliotecari es convertí en un equivalent de gran sacerdot de la cultura, i són famoses les polèmiques entre alguns d'ells, intentant sempre afirmar per sobre de tot la seva opció particular. A vegades, el seu paper arribà a semblar-se a la d'un dictador cultural. És sabut que el líric Cal·límac condemnà a l'ostracisme Apol·loni de Rodes quan aquest inicià el seu llarg poema sobre els argonautes, perquè aquell estava en contra de l'èpica com a gènere. A la mort de Cal·límac, Apol·loni ocupà el càrrec de bibliotecari i es venjà de l'altre condemnant a l'oblit la seva obra lírica.

És a dir, a la biblioteca d'Alexandria començaren a tirar-se els plats pel cap, tasca que dura des de llavors en el petit món literari, on crítica i polèmica coincideixen fins al punt de convertir-se en pugna de verdulaires.

La cultura alexandrina s'explica en el mestissatge, inclòs el de la pròpia ciutat. És sabut que aquesta va ser somiada abans de ser fundada. Explica el mite que el mateix Homer es presentà en somnis a Alexandre, tot recitant-li un passatge de l'*Odissea* que senyalava un punt ideal del litoral egipci, el punt estratègic per excel·lència. Una ciutat que ingressa d'aquesta forma en la història té totes les garanties per temptar permanentment els poetes, àdhuc en els seus moments de gran crisi. Forster va escriure un bell fragment, semblant a un rèquiem, que resumeix la visió poètica de la fatalitat alexandrina: «Malgrat les diferències, l'home que creà Alexandria i la dona

L'estructura de la biblioteca d'Alexandria és fonamental per la comprensió de les seves funcions i també de la seva repercussió. En primer lloc, foren dues biblioteques pel preu d'una. La gran biblioteca, coneguda com la Mare, es trobava en el Museion i havia arribat a reunir més de mig milió de volums; la petita, coneguda com la Filla, es trobava en el Serapèum. Paradoxalment, aquesta darrera, encara que més petita, arribà a tenir més volums que la principal, tot i que no substituí la seva representativitat canònica.

Més que en ella mateixa, la Gran Biblioteca té singular importància perquè formava part de l'autèntic nucli de la saviesa alexandrina, el Museion, la llar de les muses que el segon rei làgida Ptolemeu Soter va fer edificar a imitació del Museion d'Atenes. Pretengué, a més, que, igual que aquell, la nova institució acollís representants intel·lectuals de tots els països coneguts, tot reforçant especialment la presència de convidats grecs, presència lògica atesa la voluntat de continuïtat filohel·lènica que guiava el monarca i, després, la dinastia (continuïtat que sens dubte hauria guiat el mateix Alexandre, si hagués sobreviscut al seu destí èpic).

La Gran Biblioteca entronca així amb la vertadera fàbrica de la saviesa, la investigació, l'erudició i la polèmica. El Museion aplega, en efecte, totes les experiències culturals i científiques que produïa el món antic.

Les matemàtiques van alternar amb la poesia lírica, l'astronomia amb el teatre, les ciències físiques amb l'epopeia. Posats a acollir, potser va allotjar fins i tot la modernitat.

Una relació dels encerts de la cultura alexandrina sorgits a partir del Museion ens portaria massa lluny. Com a fites destinades a alimentar la cultura del futur, n'hi ha prou amb citar l'obra poètica de Teòcrit i Cal·límac; les especulacions de l'escola neoplatònica, tan decisives després pel Renaixement; les epopeies de Apol·loni de Rodes; les matemàtiques de Plotí, i, més enllà d'un etcètera inesgotable, la sistematització dels dos gran poemes d'Homer a càrrec del primer home que ocupà el càrrec de gran bibliotecari: Zenòdot.

La tasca de Zenòdot fou àrdua: va dividir en llibres la com-

vada conferiren a aquest país ric i aïllat el seu caràcter peculiar..., però la gelosa cura que prengueren tant grecs com egipcis per protegir-se de la seva pròpia identitat no els impedí influir-se recíprocament, operar un cert apropament, àdhuc una interpenetració, tot i que limitada... L'apropament es constata, per exemple, en el domini de la religió egípcia, que excita la curiositat dels grecs i els atrau però sense estimular-los a aprendre la llengua dels indígenes». I sembla cert que els monarques d'origen grec no es preocuparen de parlar l'egipci fins al final, i això fou amb la molt poliglota Cleopatra VII.

Instal·lats a Alexandria els Ptolemeus es preocuparien més d'instaurar el seu poder a la Mediterrània que de ressuscitar l'esplendor de l'antiga Tebes, però no per això deixaren d'afalagar el sentiment nacional dels seus nous súbdits i d'edificar en l'estil tradicional els superbs santuaris que marcaren tot l'alt Nil, com hem vist. Però, al mateix temps, alguns d'aquests sobirans es preocuparen per saber què havia succeït en aquell país dos mil·lennis abans de la seva arribada. No dic jo que no fos una tasca de prestigi, fins i tot un gest demagògic; però, en qualsevol cas, Ptolemeu Evergetes manà al sacerdot Manethó que redactés una llista de tots els reis o faraons d'Egipte des de las primeres dinasties de l'Imperi Antic fins a l'arribada d'Alexandre. Resulta típic de l'època que aquesta llista presentés els antics reis amb noms hel·lenitzats, és a dir, Keops en lloc de Khufu o Mikerinos en lloc de Mekera, tot contribuint a crear una nomenclatura equívoca que ha restat en nombrosos llibres de divulgació a través dels segles. Àdhuc grans poetes com Percy B. Shelley contribuirien involuntàriament al malentès, quan al seu famós poema dedicat al cap gegantí de Ramsès II, que jeia i jeu a la ruïnes del Rameseum de Tebes, denominava aquell faraó amb el pintoresc nom que li donaren els viatgers grecs: Ozimandias.

En qualsevol altre cas, la llista de Manethó és, juntament amb el temple d'Abydos, la font més autoritzada per datar les dinasties de l'Egipte faraònic. I, d'altra banda, les llicències en l'hel·lenització dels noms constitueix una de les característiques de la historiografia alexandrina, un signe d'aquell cosmopolitisme primordial al qual m'estic referint.

musculosos, provoquen un realisme aliè a l'expressió egípcia clàssica i propis de l'art grec, que ja havia tingut temps de desenvolupar la seva pretensió de convertir l'home en centre absolut de totes les coses.

Amb la incorporació del formalisme grec a la rigidesa de l'art egipci clàssic, ens trobem al cor de l'hibridisme, característica de tota l'experiència alexandrina. L'art egipci havia restat inamovible durant dos mil·lennis. La seva expressió ha estat denominada «l'art del crepuscle» i la seva ambigüitat ha estat sovint objecte de rebuig. Però és l'essència de la personalitat ptolemaica el que en aquesta ambigüitat es dirimeix, el perfum fatal d'una raça que vingué a tancar la història d'Egipte tot negant el que havien estat les seves essències.

Tot aquest procés de penetració cultural que vaig perfilant no tindria sentit si no insistíssim en el factor lingüístic i no solament en la *koiné* com a vehicle internacional, sinó en la llengua grega pròpiament dita i incorporada a un país que s'havia distingit durant segles per la seva impermeabilitat a qualsevol influència exterior. En el ja al·ludit congrés d'estudis hel·lènics, el professor Willy Peremans presentava una important conferència que, sota el títol «El bilingüisme sota els Làgides», oferia un quadre molt exacte de les relacions lingüístiques a Egipte a partir de la conquesta d'Alexandre i sota els seus successors. Subdividia els grups immigratoris en dos apartats. En el primer, tots els pobles que per abreujar denominarem «d'expressió grega», tant els del continents com els de les illes o els de les colònies de l'Àsia Menor. Afegia Peremans: «Arribats a Egipte sota el comandament d'Alexandre, establiren el seu domini de manera ferma i varen imposar la seva llengua a la vida pública del país. En la reorganització de la societat egípcia adoptaren el seu propi model grec. Renovant en part els fonaments de l'estat, seguiren les tradicions gregues, notablement distintes de les egípcies i que els recordaven una civilització i una cultura de la qual se sentien lògicament orgullosos. Prengueren contacte amb els egipcis, que alhora continuaren sota la direcció d'un clergat poderós d'una aristocràcia militar i civil de senyors terratinents i, a pesar de les successives ocupacions del país per estrangers, es dedicaren a viure la seva pròpia vida, hereva d'un passat llunyà i gloriós. Nombroses particularitats de la vida pública i pri-

En els meus dubtes o la meva sorpresa sobre la prosperitat d'aquell culte a Empúries, retrobaria les meves petites confirmacions sobre aquest nexe comú que enllaçà tota l'espiritualitat mediterrània en el moment de màxima expansió de la *koiné* i en l'hel·lenisme o l'alexandrinisme. Aquella unitat universal que, fins i tot a Roma, faria caure a les seves xarxes els mateixos que la rebutjaven. Els satírics expliquen que quan els romans més estrictes i conservadors es reien dels filohel·lens, tractant-los com a mínim d'estetes i decadents, les seves crítiques no evitaven que enviessin els seus fills a cursar estudis a alguna universitat grega o a posar-los sota el comandament d'un preceptor d'aquella nacionalitat, segons quina fos la seva condició social.

Encara que odiada, tot i que rebutjada, Alexandria es feia admirar; tot i que esclavitzat, Egipte es feia respectar. En certa manera, representava els orígens de la civilització.

Recordem els viatges a Egipte d'eminents personalitats *gregues d'un passat més remot*, com Soló, Pitàgores i, per descomptat, Heròdot. En una part del seu diàleg sobre la natura, el *Timeu*, Plató explica que Soló va sentir dir a un savi egipci que el passat d'Atenes era més antic i prestigiós que el d'Egipte. Això no obstant, Heròdot, fascinat per la maduresa de la civilització al país del Nil, reconegué la superioritat intel·lectual d'Egipte sobre Grècia. «Els grecs ho hem après tot dels egipcis», digué. I jo pensava en aquella declaració d'humilitat quan observava al museu Arqueològic d'Atenes les escultures dels *kouroi* i els *korei* del període arcaic. Aquests joves, aquestes donzelles absolutament admirables, es presenten en actitud votiva, amb la mirada perduda buscant segurament la divinitat. Encara no han trobat la perfecció formal que caracteritzaria l'escultura grega del període clàssic, i en la seva rigidesa retrobem un model que ens és familiar. Es tracta del típic cànon egipci que presenta a les figures atrapades en un instant del moviment ritual, moviment captat així per a l'eternitat: la cama dreta rígida, mentre l'esquerra es desplaça cap endavant, en un pas ferm i contundent.

Mentre constatava aquesta presència del passat egipci en el primer art grec no podia menys de recordar l'efecte contrari: quan, a partir de l'hel·lenització d'Egipte, els baixos relleus dels temples ptolemaics presenten les figures amb els membres

d'Alexandria–, cal destacar la funció de protector de marins i mercaders atribuïda a Serapis en els centres portuaris més importants de la conca mediterrània, així com la presència, en aquests, de distints serapèums, és a dir, santuaris de Serapis. Ja al segle III abans de Crist, existia una fundació d'aquest tipus a l'illa de Delos, zona natal d'Apol·lo i, per tant, centre d'aquest culte per als pobles hel·làdics. La presència del déu d'Alexandria en aquell terreny sacre tindria el valor d'una «pica en Flandes», entre d'altres raons perquè el sever Apol·lo suportaria malament que vingués a fer-li ombra una divinitat tan recent i, a més a més, d'importació.

Coses semblants podríem dir sobre la popularitat encara més gran que arribà a adquirir el culte a Isis, la més estimada entre les divinitats de les primeres cosmogonies egípcies. Assimilada al món grec amb les característiques d'una «gran mare», tingué a l'Imperi Romà funcions de sospitosa remeiera i hom la relacionà estretament amb la màgia, donant lloc a uns complexos misteris que ja tenien ben poc a veure amb la seva funció inicial a l'Egipte faraònic. I, de la mateixa manera que Serapis, fou guia de mariners en la seva manifestació d'Isis Pharia, nom justificat per la presència d'una imatge seva al cim del famós far d'Alexandria.

¿Quin llarg camí hagueren de recórrer aquests cultes ancestrals per arribar fins als ports més remots del Mediterrani? El professor Dunnard destaca dos fets fonamentals: primer, que aquells santuaris existirien com a fundacions lògiques del colons alexandrins, que perpetuarien en terra estranya els cultes que els eren propis i naturals i, en segon lloc, apareix la religió instrumentalitzada com a raó d'estat, missatgera del poder dels Ptolemeus i vehicle colonitzador. ¿Potser també una forma de penetració cultural amagada? No és aquest el lloc per ocupar-se de l'expansió militar d'Alexandria, però sí que cal destacar aquella utilització dels cultes egipcis en allò que el professor Mannard denomina irònicament la «Isispropaganda». No va ser la primera vegada ni l'última en la Història que una divinitat era utilitzada amb fins publicitaris. Però, en el cas concret que ens ocupa, la presència d'un serapèum o un *iseion* en qualsevol lloc de les terres hispàniques em restituïa la certesa d'aquella identitat cultural que jo estava buscant en els meus viatges.

de Kom esh-shuqafa, sorprèn descobrir a dos déus del Panteó egipci clàssic: Horus i Anubis, representats en la seva manifestació antropomòrfica completament hel·lenitzada i, a més, abillats respectivament amb una clàmide grega i una cuirassa romana. I, en la més típica de les deformacions, Horus abandona la seva imatge de falcó rutilant i es converteix en un nen que es xucla sempre el dit gros, assegut a la falda de la gran mare Isis, revestida alhora amb nous atributs, segurament més d'acord amb la seva expansió mediterrània. En aquesta representació, Horus rep el nom d'Harpòcrates.

Si l'amant de l'antic Egipte ha après a contracor a pactar amb les deformacions sofertes pels vells mites a través del sincretisme, li resulta encara difícil trobar en aquell déu Serapis, al qual ja m'he referit, quelcom que s'assembli remotament a la religió dels seus avantpassats. Aquest déu, el culte del qual retrobava jo a Empúries, fou una invenció típicament alexandrina o, per ser més exactes, un compromís dels reis Ptolemeus de sang grega amb els antics cultes del Nil.

Serapis va néixer d'un sincretisme entre Osiris, el més prestigiós dels déus genuïns, i el bou Apis de Memfis, una ciutat el clergat de la qual continuava observant l'antiga ortodòxia. A aquests dos atributs nacionals se'ls afegiria la figura del Zeus olímpic, importada pels colonitzadors. A més, aquests van substituir la parafernàlia original d'Osiris per un símbol que representava un cistell de vímet com els que encara fan servir a la vall del Nil per guardar el gra. Amb la qual cosa el flamant Serapis es convertia en una divinitat egípcia d'èxit segur en un país que tenia, en els cereals, la principal font de prosperitat. El país que no pas per casualitat seria anomenat en un futur «el graner de Roma».

Les raons de l'èxit del culte de Serapis a l'estranger han estat prou estudiades com per no continuar suposant que es basen únicament en l'impacte de l'exotisme o en el caràcter pintoresc que els costums egipcis poguessin presentar als pobles occidentals. En una documentada ponència, presentada als col·loquis internacionals de l'associació *Studia Hellenistica*, el professor Robert Dunnard destacà la funció propagandística que tenia l'expansió mediterrània dels cultes egipcis. Ja des del primer apogeu dels Ptolemeus –que equival a dir l'apogeu

pensament que perpetua les més nobles experiències de l'àmbit mediterrani en el terreny de les humanitats.

No és casual tampoc que, a la denominació generalment acceptada d'hel·lenisme, hom prefereixi avui la «d'alexandrinisme». És ben cert que, en el domini cultural, aquesta ciutat va tenir rivals seriosos, com Pèrgam o, en to menor, els regnes d'Antioquia, Samos i Rodes, entre altres. Però Alexandria mantingué el ceptre cultural, tant pel seu interès a proclamar-se l'hereva espiritual d'Atenes com per l'innegable prestigi que li atorgava el seu fundador, aquell soldat macedònic tan admirador de la tradició grega que dormia amb els versos d'Homer com a coixí. ¿Per què ens ha de sorprendre que el fundador d'Alexandria volgués ser, abans que res, un heroi homèric? En *La vida d'Alexandre*, Plutarc ens explica els extrems d'aquella devoció: «Travessà l'Hel·lespont i baixà a terra a Ílion on sacrificà a Atenea i va fer libacions als herois. Ungí llargament la columna erigida en honor d'Aquil·les, i corrent nu amb els seus amics al seu entorn, segons costum, la coronà, proclamant Aquil·les benaurat perquè en vida va tenir un amic fidel (Patrocle) i després de la seva mort un gran poeta (Homer)».

Aquelles tradicions culturals i els seus epígons en les monarquies que es desenvoluparen un cop mort Alexandre i després de la divisió del seu imperi són imprescindibles per comprendre el significat últim d'Alexandria. Un dels seus trets fonamentals, el cosmopolitisme, era quelcom que s'estava revelant com un nexe d'unió en les experiències estètiques que jo anava contemplant per Grècia, Istanbul i Roma. Però el seu abast anava molt més enllà i em permetia ubicar-lo en àmbits propis, gairebé quotidians.

De fet, tenia proves del cosmopolitisme alexandrí en la meva pròpia terra.

A les ruïnes d'Empúries, prop d'on resideixo, m'he sorprès a vegades davant les restes d'un temple dedicat a Serapis, una divinitat que qualsevol classicista ortodox consideraria bastarda. Igual que a Alexandria, és un déu que, essent egipci, no té res a veure amb Egipte. És notori que, a partir de l'hel·lenització d'Egipte, els antics déus faraònics foren modificats, tot integrant-se amb els dels colons grecs. Ja no cal dir quan va arribar la invasió romana. Precisament a Alexandria, a les catacumbes

En aquesta contínua cerimònia de la desolació, en aquest banquet de la mútua mossegada que és la Història, alguns detalls em remetien inevitablement a Alexandria; més ben dit a l'experiència alexandrina. La visió d'algunes escultures en el museus dels tres imperis, les ruïnes dels seus santuaris, els textos clàssics, tot constituïa les peces disperses d'un trencaclosques que s'anava reconstruint en una unitat reveladora i reconfortant, perquè aquesta unitat que compendiava un conjunt de pobles enfrontats es confirmava com a identitat cultural i com les meves arrels.

Quan en el museu arqueològic d'Istanbul em vaig topar amb el sarcòfag anomenat «d'Alexandre», les arrels quedaren confirmades en aquesta denominació que paradoxalment és una impostura.

Jo donava per cert que el sarcòfag del déu soldat era de cristall i no de marbre, donava per cert que mai no va ser trobat i que, si els somiadors no menteixen, ha de ser en una tomba també perduda: el Soma d'Alexandria. No vaig tenir, doncs, la menor decepció en llegir que el magnífic sarcòfag que reprodueix Alexandre al camp de batalla va pertànyer en realitat a un jove príncep de Sidó que, emparant-se en l'anomenada d'Alexandre, s'acollia al més alt patrocini que un governant i un guerrer podia desitjar en aquells temps. Però m'atreviria a dir que també era el millor reclam a què podia acollir-se un home civilitzat. En aquell malentès entre prínceps –el de Sidó i el de Mite– jo trobava una prova de civilització que enllaçava amb les peces més valuoses vistes a la ciutats esmentades. Una civilització que arrencava d'uns trets comuns personificats en una experiència lingüística comuna personificada amb la *koiné*, el grec universal. Però també una civilització que assolia els seus aspectes més refinats en l'experiència estètica que es va denominar «hel·lenisme» i que no fou sinó una continuació natural de la cultura hel·lènica, és a dir, la grega pròpiament dita. En les esmentades visites als grans museus jo copsava l'impacte d'aquell moviment, que seria xuclat i aprofitat per la civilització romana i, segles després, pels artistes del Renaixement. Des de les exquisides tanagres mig amagades al Museu d'Alexandria, passant pels sarcòfags d'Istanbul, fins al mateix Miquel Àngel de *San Pietro in Vincoli*, tot parlava de l'hel·lenisme com el fil conductor d'un

La Gran Biblioteca d'Alexandria

El nou somni d'Alexandria

Terenci Moix

Fa alguns mesos, una notícia va acaparar els diaris del món. No anaven tan plens com avui de notícies apocalíptiques, de manera que hi havia lloc per a la curiositat i, m'atreveixo a dir-ho, per a l'expectació. Parlaven del projecte que pretén reconstruir la Gran Biblioteca d'Alexandria, i acollir-se a un esperit cultural que va convertir aquella institució i la seva ciutat en un centre d'irradiació espiritual que es projectava cap a totes les cultures i les resumia.

En una època en què la cultura es presenta com un fenomen tan disgregat, si mai es presenta, la notícia equivalia a una esperança, a la qual em vaig permetre d'oposar els meus dubtes en un article publicat a la premsa diària. No criticava l'intent de portar a terme una empresa cultural, cosa sempre digna d'elogi, però sí que expressava els meus dubtes sobre l'oportunitat d'acollir-se a un símbol que, tot i que prestigiat pel temps, sembla difunt des de la disgregació produïda per temps mateix. La gran biblioteca es convertia, vista així, en un fetitxe cultural.

¿És possible reproduir avui l'esperit que guiava la gran biblioteca, els seus homes i fins i tot la ciutat d'Alexandria com a símbol cultural?

La casualitat em portà a passar, l'estiu de 1990, per diversos llocs entrelligats pel tema comú de la caiguda dels grans imperis i, així mateix, per la substitució de les grans cultures. Semblarà potser una presumpció de viatger el fet de precisar que, mitjançant aquests periples, s'anava condensant als meus ulls una idea del que han estat les nostres cultures mares, el que en restava, acumulat en el desordre dels segles i amb l'al·lucinant antropofàgia de la Història.

Tres llocs precisos i, no cal dir-ho, buscats van ser l'exemple viu de les meves comparacions. En primer lloc, les illes gregues, el llegat preclàssic i ja al Peloponès, la cultura de la *polis*. Després, Constantinoble, és a dir, l'heretatge bizantí devorat per Istanbul i el llegat otomà devorat alhora pel caòtic desordre actual. Finalment, Roma, aquesta incessant, provocadora claveguera de la Història, sobre la qual tantes pàgines he escrit i a la qual en certa ocasió m'he referit com «una coctelera dels temps». Coctelera agitada amb tanta violència que acaba sumint-nos en una fascinació feridora, potser perquè pressentim que el resultat no és sinó la veritat última del temps.

La Gran Biblioteca d'Alexandria

El nou somni d'Alexandria

Terenci Moix

